محمود عوض

جيل سيئ السمعة !

كان الرومان يقولون منذ ٢٣٠٠ سنة : من حق كل إنسان أن يجنّ مرة !

وإذا مارست بدورى هذا الحق الآن فإنه يجب أن أقول عن الجيل الذى أنتمى إليه . إنه جيل سيئ السمعة . كنا كذلك قبل حرب أكتوبر . ويجب أن نظل كذلك بعدها .

لقد رضعنا فى صبانا المبكر شعارات كثيرة ، وقرأنا إشارات مرور كثيرة ، تحدد لنا مقدماً الطريق الذى يجب أن نسلكه من أجل أن نصبح فى النهاية مواطنين صالحين فى هذا البلد ، وهذه الأمة . إنهم حددوا لنا مقدمًا نوع « الطبخة » التى يجب أن تتكون منها عواطفنا ، ومقاس القالب الذى يجب أن نضبط عليه تصرفاتنا ، وطبيعة المواصفات التى يجب أن تكون عليها أفعالنا لكى نحصل من المجتمع بعد ذلك على شهادة بحسن السير والسلوك . مواصفات تقول لنا إن المواطن الصالح هو الشخص الذى لا ينقد أبداً ، وإنما يوافق دائماً . لا يبادر أبداً ، وإنما يتبع دائماً . لا يسأل أبداً ، وإنما يطيع دائماً . لا يجازف أبداً ، بل يحتاط دائماً . لا يتفوق أبدًا ، بل يتوسط دائمًا . لا يتطرف أبدًا ، بل يعتدل دائمًا . لا يغامر أبدًا ، ولكنه يبحث عن راحة البال دائماً .

إن صبانا المبكر ، فى هذا الجيل ، هو تسجيل حى لهذه المواصفات التى كنا نتنفسها فى كل ثانية مع كل نسمة فى الهواء ، وكل كلمة فى الصحف ، وكل تعليق فى الإذاعة ، وكل صورة فى التليفزيون .

كانت مشكلتنا هى الحرية . حرية أن نقول « لا » ، وحرية أن نرفض مبدئيًّا التنازل عن هذه الحرية مقابل أى « علف » يقدمه المجتمع لنا . إن المجتمع ظل يعلمنا سنوات طويلة أن الخبز أهم من الحرية . . والطاعة أهم من التمرد . . والتصفيق أهم من التفكير . وحينما تمرّد جيلنا كله على هذه الشعارات ، بعد هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧ ، بدأ الأكبر سنًّا منا – الأكبر سنًّا وسلطة – ينظر من قمة الهرم إلينا نحن الواقفين فى السفح . إنه ينظر إلينا ، ويمصمص شفتيه مشمئزًّا ومعترضاً ومندهشاً فى النهاية . هؤلاء الشباب مشاغبون . ما الذى يريدونه من هذا البلد ؟ ألم نضمن لهم التعليم المجانى ؟ ألم نضمن لهم وظائف فى الحكومة كل سنة ؟ ألم نشتر لهم مائة أوتوبيس فى العام الماضى ؟ ألم نقرر لهم عشرين جنيهاً يصرفونها كل شهر بغير أن يستحقوها ؟

نعم ، كل هذا حدث . . وأكثر .

ولكن المشكلة كانت دائماً هى أننا نفكر فى أشياء لم تكن مهمة عندهم بالأمس !

لم يكن السؤال هو : هل يصمد بلدنا أو لا ؟ طبعاً سوف يصمد . ولم يكن السؤال هو : هل تاريخنا مستمر فى التراكم أو لا ؟ طبعاً مستمر . ولم يكن السؤال يتعلق بما إذا كان بلدنا يعيش أم لا . إنه يعيش .

ولكن السؤال كان هو : كيف يعيش بلدنا ؟ هل يعيش باعتباره جزءاً من القرن العشرين ، أو باعتباره عقبة فى طريقه ؟ قبل أن نفكر فى أين وماذا ومتى ولماذا . . يجب أن نفكر ، ونطيل التفكير فى : كيف ؟ إن كل إنسان يستطيع أن يكون غنيًّا . . بالتهريب أو بالسرقة أو بالنصب أو بالاحتيال ، أو بالكفاية . إن ثروته لا معنى لها قبل أن نعرف أوّلا : كيف حققها ؟ من هنا فقط نستطيع أن نرى ثروته باعتبارها قيمة مضافة إليه أو مخصومة منه .

ولقد حدث مرة أن كتبت فى جريدة « أخبار اليوم » سلسلة بعنوان « محاولة لفهم الجيل الجديد » . . ونشرت الحلقة الأولى منها فى عدد ٢٤ فبراير سنة ١٩٦٨ . وفى تلك السلسلة كتبت أقول :

« لقد تراكمت عدة اتهامات ينسبها الجيل القديم إلى الجيل الجديد ، كان من نتيجتها أن أصبح الجيل الجديد جيلا سيئ السمعة ! هل أقول الحق ؟ إن معظم الاتهامات الموجهة إلى الجيل الجديد – وأنا منه على أى حال – هى اتهامات صحيحة ! وربما يحتاج الجهر بهذه الحقيقة إلى أن يجنّ الإنسان مرة . . كما كان يحق للرومان القدماء . ولكن الأمل يبقى هو العزاء الوحيد . الأمل فى أن إنساناً ما . . شخصاً ما . . سوف يعود إلى هذه الحقيقة بعد سنوات قادمة ويقول : فعلا . . كان هذا الرجل عاقلا منذ عشرين سنة » !

إن الرقيب الحكومى على الجريدة بدأ يقرأ البروفات قبل النشر ، بأصبع على شفتيه ، متردداً من البداية فى الموافقة أو الاعتراض على نشر السلسلة . إنها صحافة مصر قبل العبور

ثم استمر الرقيب يواصل قراءة ما كتبت فى الحلقة الأولى . . إلى أن وصل إلى فقرة قرأها بصوت مرتفع ، كما لو أنه اكتشف قنبلة زمنية تحت كرسيه . فى الفقرة كنت أقول : « إن الحكومة تريدنا – نحن الجيل الجديد -- أن نصبح كالمساكن الشعبية التى تبنيها : متشابهين فى كل شىء ، منظمين فى كل شىء ، متوسطين فى الارتفاع ، متساوين فى الحجم . هذه هى الصورة المؤلمة . . . إن كل ما تريده لنا الحكومة هو أن نسجل حياتنا يوماً بعد يوم . سنة بعد سنة ، صمتاً بعد صمت . نوماً بعد نوم ، تكرارًا بعد تكرار . إن المجتمع قد يتصور أننا أصبحنا كذلك فعلا بحكم الرغبة ، ولكن هذا هو الخطأ الفادح . إن كل الاتهامات ضدنا صحيحة . . ولكن . . لا تجعلونا كبش فداء لخطايا المجتمع . . هو الذى ولدنا . هو الذى أنشأنا . هو الذى يجب أن يقف فى قفص الاتهام » .

هنا بدأ تململ الرقيب يصبح اعتراضاً ، والاعتراض يصبح تأشيرة حمراء . لقد اعترض على الفقرة كلها . وبعد مناقشة اعترض على نصفها . وبعد مناقشتين

اعترض على سطر واحد فيها .

لم يكن هذا هو المهم . ولكن المهم هو أنه فى اليوم التالى شاعت الظروف أن تقع مظاهرات الطلبة الشهيرة فى فبراير سنة ١٩٦٨ . كانت المناسبة الظاهرة للمظاهرات هى الأحكام التى صدرت ضد قادة سلاح الطيران بسبب هزيمة يونيو . ولكن التطورات سرعان ما كشفت بعد ذلك عن الأسباب الأخرى ، الأعمق ، لتلك المظاهرات . أسباب تتعلق بأسلوب كامل فى التربية ، والتعامل ، والحكم . . كان الشباب هم أكثر ضحاياه ، وهم الآن أكثر المتمردين عليه . إنهم متمردون ضد السلطة والمجتمع كله ، الذى أصبح الآن فى قفص الاتهام .

وفجأة أصبح الجو السياسى كله مشحوناً بالكهرباء . . وأصبحت تلك الكهرباء واضحة فى التشدد المفاجئ من الرقابة على الصحف . إن الرقيب الذى كان يتناقش معى فى الأسبوع الماضى ، أصبح معترضاً على أى مناقشة فى هذا الأسبوع . وبدلا من أن يشطب سطرين أو فقرتين ، شطب فى هذه المرة الحلقة الثانية بأكملها . إنها حلقة كنت أناقش فيها أسباب الفجوة بين الشباب والمجتمع . . ولكن الرقيب كان يراها باعتبارها « مذكرة تفسيرية » لما جرى من مظاهرات . . .

– هل ترانى أحرص على مزيد من المظاهرات ؟

– لا .

– ألم توجد هذه الحلقات لديك من قبل المظاهرات ؟

– نعم .

– إذن ، لماذا تعترض على حلقة بأكملها ؟

– لأن الجو الآن مشحون بالكهرباء .

– ولكن ، لماذا هو أصلا مشحون بالكهرباء ؟

– لأن الشباب يتظاهرون فى الشوارع .

– ولكن ، لماذا يتظاهر الشباب ؟

– لا أعرف .

– إذن ، ماذا تعرف ؟

— أعرف فقط أن لدى تعليمات ، ويجب أن أنفذها . . مفهوم ؟

طبعاً مفهوم . إن المفهوم هو أن إخفاء ما يجرى أحسن علاج له . ليس المطلوب هو تشخيص المرض ، أو علاجه ، ولكن المطلوب هو التظاهر بعدم وجوده . . وهذا هو أساس المشكلة بيننا وبين المجتمع كله . إن أحدًا لا يريد أن يعرف ، أو يتظاهر بأنه لا يعرف . إن لهم عيوناً ولكنهم لا يرون . . وإن لهم آذاناً ولكنهم لا يسمعون .

لقد كانت تنطبق على جيلنا تماماً كلمات الزنجى الأمريكى فى الرواية التى كتبها « رالف إليسون » سنة ١٩٥٣ . كلمات قالها وهو يصرخ : « أنا رجل خفىّ . . إن الناس يرفضون أن يشاهدونى . . إننى متألم من حاجتك إلى إقناع نفسك بأننى موجود فى الدنيا الحقيقية ، وأننى جزء من كل الضجة والقلق . إننى ألعن ، وأشتم ، وأقسم أن أجعلهم يعترفون بى . . إنك معترض على تصرفى هذا ، وتعتبره تصرف إنسان غير مسئول . إن الحق معك . . ولكن ، لمن أستطيع أن أكون مسئولا ، ولماذا يجب أن أكون مسئولا ، وأنت ترفض رؤيتى ؟ » .

نعم ، كان المجتمع يرفض رؤية جيل بأكمله . يرفض مناقشته أو الاعتراف به أو حتى بمجرد الاستماع إليه .

وتلك كانت مشكلة السنوات العشرين الأخيرة . إنها مشكلة من عشرين مشكلة خلقها الخلل السياسى الذى تسمّم به المجتمع المصرى قبل هزيمة يونيو ١٩٦٧ بسنوات طويلة . خلل اصطلحنا على تسميته مؤخرًا بـ « مراكز القوى » .

لقد كنا نحن ، الجيل الشاب فى هذه الأمه ، وقود هذه الثورة . . بدل أن نكون جنودها . إن جيلنا ولد لكى يفتح عينيه على شعارات مثل « ارفع رأسك يا أخى . . فقد مضى عهد الاستعباد » . . فالثورة تلقفتنا وعمرنا أقل من العاشرة . إن أناساً هذه مواصفاتهم لا يمكن اتهامهم بأنهم يدافعون عن جذورهم قبل الثورة . لم يكن لنا جذور . ولا يمكن اتهامهم بأنهم يريدون العودة إلى الوراء . لم يكن خلفنا وراء . ولا يمكن أيضاً اتهامهم بالتآمر . لم يكن بيننا متآمر . لم يكن خلفنا هدف نسعى إليه . . والهدف الوحيد المتاح لنا هو التقدم إلى الأمام . التقدم ببلدنا ، وبأنفسنا .

لقد تلقفتنا الثورة ونحن جيل ملىء بالتحدى الطازج للحياة . جيل مشحون

بالمرح والصحة واللهفة والشوق والأمل والحيوية . لم تكن فى صوتنا نبرة يأس ، ولا فى تفكيرنا آثار هزيمة ، ولا فى شخصياتنا علامة حزن ، ولا فى حياتنا معركة خاسرة . إن المعارك الخاسرة بدأها وخاضها غيرنا . وبالرغم من أننا فى النهاية دفعنا جزءاً من الثمن . . فإننا لم نتورط مطلقاً فى واحدة منها .

ثم . . بدأنا نشم رائحة الفساد . بدأنا نشم الرائحة ، بغير أن ندرك بالضبط أين مصدرها ؟ . . ولماذا السكوت على أسبابها ؟ فى تلك الأيام كان التمرد شيئاً مفهوماً . . ولكن عقوبة إعلانه كانت قاسية . إن العقوبة هى أن يتم تصنيفك فى خانة المعادين للثورة . نعم ، فى تلك الأيام كان كل شىء – صواباً أوخطأ – يتم الحديث عنه باعتباره إنجازاً من إنجازات الثورة .

إن كلمة « ثورة » عريضة فى مداها . . فهى تمتد من أقصى المثالية ، إلى منتهى الوحشية . . ومن العظمة إلى القسوة . ومن الروحية إلى القوة . إنها كلمة تغير ألوانها لأنها تستمد أصباغها من الناس والظروف . وفى الثورة المصرية ، كما فى كل ثورة أخرى ، تستطيع أن ترى بوضوح نوعين من الثوريين عملا تحت لوائها منذ سنة ١٩٥٢ : هؤلاء الذين اصبحوا ثوريين بدافع من المثالية ، وأولئك الذين أصبحوا ثوريين بدافع من الحقد . إن الأولين – كأشخاص من أفضل من الجماهير – يريدون رفع هذه الجماهير إلى مستواهم ، بالتجربة ، والتعليم ، والتحرر . أما الآخرون فقد كانوا فى حالة تعيسة من البداية . . لأنهم يريدون أن ينتقموا من هؤلاء الذين كانوا أسعد منهم ، وبارتفاعهم إلى السلطة يريدون الانتقام من هؤلاء الذين سقطوا من السلطة ، إنهم فى النهاية يمثلون نموًّا متقيحًا على الوجه الطاهر للثورة .

وكانت المشكلة هى أن هذا التقيح ينمو يوماً بعد يوم . . تحت سمع الجميع ، وعلى مشهد من الجميع .

وفى الوقت نفسه كانت الحصانة ضد هذا التقيح تنهار يوماً بعد يوم . إننا نعرف مثلا أن الجسم الإنسانى ، حينما يواجه اختلالا صحيًّا ، نسميه مرضاً ، يكون مصحوباً بردود أفعال محددة قاطعة . . تميل إلى أن تعيد الجسم إلى حالة

تشبه ما كان عليه قبل هجوم المرض . إن شيئاً شبيهاً بذلك يجب أن يحدث حينما يعانى نظام اجتماعي من الاختلال أو المرض . شيئاً يشبه نفس النوع من رد الفعل يجب أن يحدث لكى تعود الأمور إلى نصابها ، وتحل الصحة محل المرض . إن بعض الثورات القصيرة النظر تقضى مقدماً على مثل هذه القوى التصحيحية ، وهذا يفسر لنا جزئيًا لماذا تنتهى ثورات كثيرة إلى شيء مختلف تماماً عما أراده لها الثوار فى البداية .

ولقد كنا نحن – شباب هذه الأمة – ندرك ذلك ولا نفهمه . . ندرك أن فى بلدنا أخباراً سيئة لا تقولها لنا الصفحة الأولى . . وإشاعات متناثرة لا تفسرها لنا شاشة التليفزيون . . وعلامات استفهام كبيرة لا تعترف بها موجات الإذاعة . فى تلك الأيام كان الرجال يبرقون فجأة كالشهب ، ويسقطون فجأة كالشهب أيضاً . وحينما كنا نبدى أقل علامة من التساؤل . . فإن حكماء هذه الأمة كانوا ينصحوننا بأن نغلق أفواهنا ونصمت . . فحتى « الحيطان لها ودان » . نعم ، نستطيع أن نتساءل . . ولكن ليس بصوت عال . نستطيع أن نبحث . . ولكن ليس بجرأة . نستطيع أن نستقصى . . ولكن ليس فى كل شيء . نستطيع أن نشارك . . ولكن ليس فى القضايا الأساسية للمجتمع . إن القضايا الأساسية ، خصوصاً الأساسية ، ممنوعة علينا ، بل ممنوعة على الجميع .

كنا نحن – صغار هذه الأمة – نعبر عن إحساسنا .

وكانوا هم – كبار هذه الأمة – ينقلون إلينا حكمتهم .

كانوا يردون علينا قائلين : إن كل شيء يهون فى سبيل الهدف الأسمى . نعم . هناك تسلط سياسى ، وهناك كبت وقمع وتعذيب وإرهاب وتقارير سرية ومراكز قوى . ولكن ، ما قيمة كل هذا إلى جانب الأهداف الكبرى التى تحققت ؟ وإذا كان لابد من الاعتراض . . فإن النتيجة لن تختلف فى النهاية . النتيجة هى أن الحياة تسير . . بنا أو من غيرنا .

بالطبع ، الحياة تسير . إن الحياة تسير . . سواء تصرفنا فيها كجبناء أو كأبطال . ولكن السؤال هو : تسير إلى أين ؟ إلى القرن الحادى والعشرين . أم إلى القرن

الحادى عشر ؟ إلى الديمقراطية . . أم إلى الإرهاب ؟ إلى الانتصار على الواقع ، أم إلى الهزيمة أمامه ؟ بالطبع ، الحياة تسير . ولكن فى هذا العصر من الاضطراب والتغيير والتشوش والشك والامتهان . . فإن على كل منا أن يبحث عن معنى لحياته . . عن قيمة يسعى إليها ومبدأ يحارب من أجله .

كنا نلاحظ أن الجيل القديم – حكماء هذه الأمة – يساندون كل إجراء ماداموا هم يقفون على الشاطئ الآخر من النهر . لقد أيدوا وساندوا إلغاء الأحزاب واختفاء المعارضة ، أيدوا وساندوا حكم الرجل الواحد . أيدوا وساندوا إلغاء المؤسسات الدستورية . أيدوا وساندوا النظر إلى المواطنين باعتبارهم مجموعة من الأتباع ، وليسوا مجموعة من الشركاء . أيدوا وساندوا اختفاء الرأى الآخر . أيدوا وساندوا الكبت والقمع والتعذيب والتسلط والمعتقلات . . مادام فى الزنزانة مواطن آخر غيرهم . وفى كل اختبار كان اهتمامهم يتركز أولا على سؤال واحد فقط : ألا تزال رؤوسهم ثابتة فوق أكتافهم أم لا ؟ فوق أكتافهم . إذن : يا عزيزى الحاكم ، استمر ونحن معك . الكراسى ما زالت تحتهم ؟ إذن : نحن وراءك .

إن الحاكم فى أى أمة يستطيع أن يطغى ، وأن يستبد ، وأن يجعل أعوانه يطغون ويستبدون . هذه طبيعة الحكم . ولكن حكماء هذه الأمة يستطيعون أن يعترضوا ، وأن يمتنعوا وأن يرفضوا . ولكن كل هذا لم يحدث . وإذا حدث أن أصبح التعفن أمامهم أقوى من تجاهلهم إياه .. فإنهم كانوا – فى أحسن الأحوال – يديرون ظهورهم وينظرون إلى الاتجاه الآخر ، متظاهرين بأنهم لا يرون التصفية الكاملة لكل رأى مختلف . وهو الأمر الذى كانت مراكز القوى تقوم به بصفة دورية .

إنهم كانوا يجدون حجة مقنعة فى كل مرة . وحينما انهارت الحجج كلها ، أخرجوا فى النهاية حجتهم الأخيرة : كل شىء يهون فى سبيل مصر . مادامت كلمة مصر أصبحت مسموعة ، وجيشها أصبح أقوى ، واستقلالها أصبح أكيداً ، ومعاركها أصبحت منتصرة ، إذن .. فكل تنازل يهون . تهون الحرية ، تهون الثقافة ، يهون التعليم ، يهون العدل . والتاريخ يعلمنا أن أفدح المظالم يمكن أن تستمر ، وأكبر الأكاذيب يمكن أن تعيش . . إذا سكت عليها عدد كاف من الناس .

واقتنعنا . .

إننا اقتنعنا لأنه لم يكن أمامنا سوى أن نتمزق بين بديلين : إما أن ندخل دنيا الآباء بشروطهم هم . . وإما أن نبقى جزءاً من دنيانا فى المدرسة أو الجامعة . . بشروطنا نحن .

إننا لو بقينا فى دنيانا بشروطنا ، فإننا نكون قد هزمنا أنفسنا مقدماً قبل أول طلقة . ولو دخلنا دنياهم بشروطهم . . فعلينا أن نقدم التنازلات إليهم من أول دقيقة . فبمجرد أن تحصل على وظيفة بعد التخرج ، تصبح جزءًا من المجتمع ، ويصبح عليك غالباً أن تتهاون على حساب تلك المبادئ التى ظلت غالية وعزيزة عليك فترة طويلة سابقة . إن الاختيار الوحيد المطروح أمامك هو : إما أن تكون سنداناً ، وإما أن تكون مطرقة . إن أصحاب النفوذ حجزوا لأنفسهم المطارق . . ولم يتركوا لك سوى أن تكون سنداناً . . الكل يدق فوق رأسه ، وليس عليه سوى أن يستسلم .

نعم ، دخلنا الواقع بجزء من شروطهم . تحمسنا وصفقنا وآمنا وأيدنا . . لم يعد أمامنا أن نعتمد على نظام . . وإنما أصبح علينا أن نعتمد على النوايا الطيبة لمن يحكموننا .

لم يعد أمامنا أن نعترض على الانتهازية والوصولية والنفاق والكذب . . وحينما كان أبى يقول لى « لا تكذب . . لأنك لو كذبت فلن يصدق أحد ما تقول » ، فإننى كنت أعلم أنه يقول لى بنفسه كذبة مدوّية . . لأننى أعرف أن الأكاذيب هى أكثر الأشياء نجاحاً وانتشاراً .

لم يعد أمامنا أن نعترض ، فلقمة العيش مهددة . . والحرية مفقودة . لقد كان هذا مفهوماً جديداً . . حيث البراءة تصبح الدليل الملموس على أنك مذنب . إن الجريمة لم تعد هى أنك تعترض ، ولا أنك تتكلم . لقد أصبحت الجريمة هى أنك لا تصفق بصوت أعلى من زميلك ، أو لا تتحمس بقدر أعلى من جارك فى الشقة التالية . الجريمة أصبحت هى أنك لست عضواً فى شلة ، والشلة ليست جزءاً من مركز قوى ، ومركز القوى ليس جزءاً من نظام .

لقد انتشر الفساد وتفشت الانتهازية والمحسوبية واختفت الكفايات وهاجرت الأصوات المخلصة ، ومن لم يهاجر بقى فى مكانه . . ولكن بعد أن أعلن انسحابه النفسى والعقلى من كل ما يجرى . إن كتّاب التقارير السرية هم الذين يحتفظون لأنفسهم بحق الكلمة الأخيرة فى تقرير هل أنت مواطن صالح أولا ؟

لقد كنا نودع فى كل ليلة واحدًا من الآمال الكبيرة فى حياتنا ، ونتقبل العزاء فى وفاة حلم من الأحلام العريضة فى عقولنا .

نعم : كنا نموت قليلا . . كل يوم .

وفى البداية كنا – نحن المتفرجين – نهون الأمر على أنفسنا بقولنا : معلهش . . كل شيء يهون فى سبيل مصر .

فى البداية هانت المبادئ وبعدها هانت القيم ، بعدها هان المستقبل ، وأخيراً : هانت مصر ! لقد صحونا ذات يوم لكى نجد مصر مضروبة فى ميدان القتال . لقد ضربتها إسرائيل . . ولكنها فى الحقيقة كانت مضروبة من الداخل . . قبل وقت طويل من هزيمتها أمام إسرائيل .

كانت مصر قد تعفنت ، وصمتت ، وتنازلت ، وتسوست . . قبل أن يشهد قتال يونيو الرصاصة الأولى .

إننى لست محتاجًا هنا إلى أن أسجل الزلزال النفسى الضخم الذى أحدثته كارثة يونيو ١٩٦٧ . فلقد فعلت ذلك فى مقالات وكتب أخرى . ولكنى محتاج فقط إلى تسجيل ما حدث بعد الكارثة .

لقد فوجئنا بأن الذين أعلنوا من قبل تأييدهم لكل ما حدث . . هم أنفسهم الذين يعلنون اليوم إدانتهم لكل ما حدث . إنهم حكماء فى كل مرة . . منطقيون فى كل مرة . . متحمسون فى كل مرة . . ولكنهم فى النهاية : كاذبون فى كل مرة !

إن كل ما يريدونه هو السلطة . . بقايا السلطة ، وذيول السلطة ، ورضاء السلطة ، وبعدها . . فليذهب أى شيء إلى الجحيم .

ولكننا لم نذهب إلى الجحيم . لقد بدأ جيلنا يرفض من جديد أن يتنازل على

بياض عن عقله وتفكيره وإحساسه . . رفض جيلنا أن يذهب ثمن الهزيمة هباء . إن الذين دفعوا ثمن هذه الهزيمة من دمائهم كانوا نحن ، أبناء هذا الجيل ، ولم يكن أى أحد آخر . لقد مات منا الآلاف على رمال سيناء فى ظل تعليمات تقول لهم : تراجعوا إلى الخلف . . وليس فى ظل تعليمات تقول لهم : تقدموا إلى الأمام . مات منا الآلاف بغير أن يعرفوا لماذا . . ولا ماذا جرى . إنها المرة الأولى فى تاريخ مصر على ما أعلم . . التى نكون فيها ضحايا بلا معركة . . وأمواتاً بلا سبب . . وشهداء بلا قضية .

ولكن ، حيث كان مفروضاً أن تكون هزيمة يونيو ضربة قاضية لكل شيء نظيف وصادق وطاهر فى مصر . . فإنها بدأت تصبح ضربة قاضية لكل شيء مزيف ومتسلط وكاذب فى مصر .

إن جيلنا رفض أن يستسلم ، وبدأ يفكر لحسابه الخاص . إن تفكيره فى هذه المرة بدأ بعد الفيضان . لقد خرجنا من الهزيمة بغير أبطال نسير خلفهم ، ولا زعماء نستمع إليهم ، ولا علم نلتف حوله ، ولا تقاليد نجتمع حولها ، ولا ذكريات تشدنا إلى الدنيا المزيفة التى اندثرت . لقد أصبحنا جيلا مولوداً بغير حبل سُرى . إن معنا الحق ، والإحساس ، والأمل . . ولكن ليست معنا السلطة .

إن السلطة كانت ، حتى بعد يونيو ، ما تزال فى أيدى مراكز القوى . وفى الحرب ضد تلك المراكز كانت الهزيمة مصير كل من حاول الاقتراب منها ، بما فى ذلك جمال عبد الناصر نفسه . كان هذا شيئا طبيعيًّا ، بعد سنوات طويلة من النمو السرطانى لتلك المراكز . سنوات تحولت فيها السلطة إلى دائرة مغلقة ، والحكم إلى تركة وراثية ، والمناصب إلى مكافآت على الولاء .

أقول إن جمال عبد الناصر نفسه . . ربما يكون قد حاول . . ولكنه اكتشف فى النهاية أن الواقع قد أفلت من بين يديه . كان هذا شيئًا طبيعيًّا بعد أن أصبحت مراكز القوى مثل تلميذ الساحر الذى استحضر عفريتًا من الجان لكى يأتيه بشيء من النبيذ . ولما كان يجهل التعويذة التى يصرفه بها بعد أن جاءه بما يكفيه . . فإن أمره انتهى إلى الغرق فى بحر من النبيذ .

أو . . فلأقل شيئاً آخر : إن إرهاب مراكز القوى قد اتخذ لنفسه إيقاعًا خاصًا به . إن الوحش « فرانكشتاين » قد تم بناؤه ببطء وبحرص عبر فترة من الزمن ، والآن . . أصبحت له إرادة خاصة به لا يمكن وقفها .

كانت القضية المبدئية هى : من المسئول عن كارثة يونيو ١٩٦٧ ؟

لقد بدأ جيلنا يتهامس ، ثم يتكلم ، ثم يصرخ ، ثم . . أخيراً . . يتظاهر إن مظاهرات فبراير ١٩٦٨ كانت أول رد فعل حاد من الغاضبين فى هذه الأمة ، الذين يريدون أن يعرفوا حقيقة المرض . قبل أن يوافقوا على العلاج المطروح .

كان التناقض هو أن عقوبة التآمر على قلب نظام الحكم هى خمس وعشرون سنة ، فى حين أن عقوبة التآمر على هزيمة مصر هى خمس عشرة سنة !

وكان التناقض هو أن نقول إن الثأر ضرورى فى المستقبل القريب . ولكن المناقشة ممنوعة فى الماضى القريب !

وكان التناقض هو أننا نقول إن هذه الهزيمة لن تتكرر ، ولكننا نرفض فى الوقت نفسه أن نناقش أسبابها .

كان هذا نوعاً من المنطق المعكوس . . ولم يكن له سوى تفسير واحد : أن فتح ملفات هزيمة ١٩٦٧ سوف يمزق ثقوباً كثيرة فى ستارة الغموض وعدم المسئولية التى تحيط بها مراكز القوى نفسها . من هنا كانت الأسباب الملحة - وليست الكاملة - لمظاهرات ١٩٦٨ .

إن جيل الشباب يريد أن يحصن مصر ضد الهزيمة مستقبلا . . فى حين تريد مراكز القوى أن تحصن امتيازاتها ضد المحاكمة مستقبلا . من أجل هذا كانت الرغبة فى القمة هى أن هزيمة ١٩٦٧ تعتبر كارثة . . هذا صحيح . . وتمثل قضية ، هذا حق . . ولكن ، دعونا نقيد القضية ضد مجهول ! دعونا نعتمد من جديد على النوايا الطيبة لهؤلاء الذين يحتفظون فى أيديهم بمقاليد الأمور .

وكان هذا كثيراً . . كثيراً جداً . فخرجت المظاهرات . مظاهرات ضد الواقع ، وضد إعفاء أحد من الحساب ، وضد السلطة .

إنى شخصياً كنت دائماً ضد السلطة . ليست السلطة التى يمثلها سائق

أوتوبيس لا يقف عند المحطة ، أو أب يمنعك من السهر ليلا . إننى أفهم ذلك مع أننى لا أحبه . ولكننى أتكلم هنا عن السلطة التى تنظر إليك وإلى جيلك كله باحتقار كامل . إنهم ربما يقولون لك إنك رفيق طيب للحظة . ولكن ، حينما يضع شخص ما قطعة ورق فى أيديهم يعطيهم بمقتضاها قدراً من السلطة . . فإنهم يبدءون فوراً يتحكمون فيك ويستبدّون بك . . تلك هى اللحظة التى أكون فيها ضد السلطة .

وفى الوقت نفسه فإننى شخصياً ضد العنف . وضد التظاهر كأسلوب للتعبير عن الرأى . بل إننى حرصت دائماً على ألا أكون جزءاً من تنظيم أو شلة تفرض عليك ما تريده .

ولكن هذا كله لا يمنعنى من أن أفسر على الأقل دوافع الجيل الذى أنتمى إليه . . فى التمرد والغضب . إن الشباب هم فى العادة مثاليون أكثر مما هم ثوريون خطرون . إن الاختبار الحقيقى لكل مجتمع يكمن فى قدرته – أو عجزه – عن التعامل مع الجيل الشاب فى حالات احتجاجه هذه ضد تخلف الواقع عن المثل العليا . وحينما يكون المجتمع مستقرًّا فى أساسه ، ومرنًا بما يكفى للتجاوب مع أوجه الشكوى . . فحينئذ يستطيع هذا المجتمع أن ينام قرير العين دون أقل خشية من شبابه . إن الطريق مفتوح أمامهم للتعبير عن آرائهم أولا بأول ، بغير عقبة أو رقابة أو وصاية . . فلماذا إذن يخشاهم المجتمع أو يخشى غيرهم ، ويخشى أن ينقلوا احتجاجهم إلى الشارع ؟ !

أما حينما تكون الوسيلة الوحيدة التى يستخدمها المجتمع مع حركات الاحتجاج هى العنف . . وهى الكبت . . وهى التسلط . . فإنه يصبح حينئذ معرضاً للخطر . خطر التعرض لنوبات هيستيرية مفاجئة من السخط ، وخطر التحجر السياسى وفقدان الحساسية للمشاعر المتغيرة بين أعضائه .

إن شيئاً من هذا كان قائماً وقتها فعلا .

لقد تحركت الحكومة بسرعة فى اتجاهين : امتصاص هذا الاحتجاج السياسى بالالتفاف حوله عن طريق مجموعة من الإجراءات (إعادة محاكمات الطيران . . بيان ٣٠ مارس . . التعديل الوزارى . . إلخ) ثم بقذف المنطق القديم فى وجه الشباب : ماذا تريدون ؟ ألم نضمن لكم التعليم المجانى ؟ ألم نضمن لكم وظائف

فى الحكومة ؟ ألم نشتر لكم مائة أوتوبيس فى العام الماضى ؟ إلخ . . . إلخ .

إنه المنطق القديم نفسه : ليس للإنسان من حقوق على حكومته أكثر من « العلف » الذى تقدّمه له .

إنها – أيضاً – المبارزة القديمة نفسها : أيهما أكثر أهمية . . الخبز أم الحرية ؟

إن أحدًا لم يفهم أن ما يميز الإنسان عن المخلوقات الأخرى هو أنه – بالإضافة إلى رغبته فى أن يعيش – يريد أن يعيش حياة أفضل .

وأحداً لم يفهم أن فى مصر أبطالا حقيقيين يجب أن تكتشفهم . . قبل أن تركع أمام أبطال ملفقين .

وأحداً لم يفهم أن هزيمة يونيو١٩٦٧ لم تكشف فى الواقع عن مجرد أزمة حكومية . . إنما كشفت أساساً عن أزمة حضارية .

وأحداً لم يفهم أننا يجب أن ننظر إلى الحكومة باعتبارها شيئاً أقل من مشكلة سلطة ، وشيئاً أكثر من مشكلة قيادة .

وأحداً لم يفهم أن انسحاب شباب هذا المجتمع منه قد احتاج إلى كارثة قومية ، وسوف يحتاج استردادهم إليه إلى ثقة قومية .

وأحداً لم يفهم أن « الأتباع » الذين ضحوا بعشرين ألف قتيل بغير تساؤل . . لن يفرطوا اليوم فى نقطة دماء واحدة بغير حيثيات .

نعم . لم يفهم أحد . أو ، على الاقل ، لم يحاول أحد . لقد اتخذت إجراءات ، وأزيلت آثار ، ولكن الأسباب بقيت على ما هى عليه . أسباب الهزيمة .

ثم : بدأ التغيير .

مع حدة الصراع ضد العدو ، وتكرار حركات الاحتجاج والغضب ، واستمرار فجوة الثقة قائمة . . بدأ التفكير فى علاج آخر .

إن هذا العلاج لم يبدأ بإجراءات ١٥ مايو سنة ١٩٧١ ، ولا هو بدأ بحرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ .

إننا بدأنا نكسب حرب أكتوبر ، فى رأيى ، قبل أن تقع فعلا بسنوات طويلة . . تماماً مثلما بدأنا نخسر حرب يونيو قبل أن تقع بسنوات طويلة .

فى أول استفتاء شعبى جرى بمصر لانتخاب أنور السادات رئيساً للجمهورية – وكان ذلك فى أكتوبر سنة ١٩٧٠ – خرجت نتيجة الاستفتاء معلنة أن ٩٠,٢ ٪ يوافقون على السادات كأول رئيس للجمهورية يخلف عبد الناصر.

كانت تلك فى حد ذاتها نتيجة مثيرة للدهشة . . بعد أن جرت العادة فى مصر من قبل على أن تكون نتيجة أى استفتاء هى مقدماً ٩٩,٩٩ ٪

المهم . . خرج أنور السادات بعدها لكى يعلن على شاشة التليفزيون فى ١٨ أكتوبر ١٩٧٠ ، قائلا : « إن الذين قالوا لا . . إنما كان قولهم لها تحفظاً على المرشح لرئاسة الجمهورية نفسه . إن هذا لم يسبب لى أى ضيق ، ولا اعتبرته مدعاة لألم ، إنما اعتبرته ظاهرة صحية » .

لقد استطاع الحاكم ، أخيراً أخيراً ، أن يضع أذنه على النبض الحقيقى لمصر . القدرة على أن تقول « لا » للحاكم . . بغير أن يكون الثمن هو اعتبارك خائناً وعدوًا وكافراً ومتمرداً . إنها كلمات جديدة ، وأسلوب جديد . إن هذا التصحيح كان مبكراً من أنور السادات بالنسبة لسلبيات نظام الحكم فى مصر . إن حقك وحقى وحقها وحقنا جميعاً فى أن نقول « لا » بغير أن تطاردنا أجهزة الحاكم نحن وأولادنا من بعدنا . إن هذا المواطن المعترض ظل هو المواطن الخفى فى المجتمع المصرى طوال فترة طويلة سابقة . إنه كان موجوداً دائماً . . ولكن الاعتراف به هو الذى لم يكن موجوداً . . كما لو كان مجرد التظاهر بعدم وجوده هو القضية الأساسية .

ثم جاء أنور السادات فجأة لكى يعلن : كلنا شركاء فى هذا البلد . . الذين يقولون نعم والذين يقولون لا . إن هذه الحقيقة هى شىء بديهى ومفروغ منه ، وهى الأصل والأساس . ولكن ، من طول غيابها عن حياتنا السياسية فى مصر . . أصبحت تبدو لنا – نحن شباب هذه الأمة – كالاكتشاف المفاجئ . . وهو انطباع لم أستطع التخلص منه لفترة طويلة تالية .

إن أنور السادات لم يتحرك بعدها بسرعة . . فراكز القوى أحاطته بحقول ألغام وقنابل زمنية عديدة . . ولكنه فى ذلك اليوم عبّر على الأقل عن اتجاه السفينة .

مع ذلك فإن أنور السادات نفسه لم يسلم هو الآخر من مواجهة تمرد هذا الجيل . إن الجديد فى هذه المرة هو أنه لم يتخذ من هذا التمرد حجة جديدة لإعادة هذا الجيل إلى ما كان عليه . لا شيء فى هذا العصر يعود أبداً إلى ما كان عليه . إنه أيضاً لم يضع جيلنا أمام بديلين اثنين : الخبز أو الحرية . إنه لم يفعل ذلك ، بالرغم من أن مراكز القوى حاولت أن تغريه بذلك . طبعا : التفكير البوليسى فى السياسة يبدأ دائماً من مقدمة أن كل الناس مذنبون ومتآمرون إلى أن يثبت العكس .

مع ذلك فإن عوامل كثيرة ساعدت فى بقاء أزمة الثقة تلك على ما هى عليه . الثقة بين جيل الشباب وبين الدولة .

فن الناحية المبدئية كان هناك فى الظل دائماً كابوس هزيمة ١٩٦٧ ودروسها .

ومن ناحية أخرى كانت هناك حالة الكسل العقلى التى أصيبت بها أجهزة السلطة ، بحيث إنها لا تريد مطلقاً أن تنزل إلى الشباب وتسمع منهم وتفسر لهم . . ولكنها تريد فقط أن تزجرهم وتعاقبهم .

ومن ناحية ثالثة هناك تجاهل للتغيير الذى وقع فى المناخ السياسى ولا يمكن إلغاؤه . . إن جيلنا هو الذى عانى من الهزيمة والمرارة والألم . ألم السير فى حياة لا يعرف اتجاهها ولم يشترك فى صنعها . . وسط أحداث لا دور له فيها سوى التفرج عليها . لقد تقطعت أسلاك الاتصال بيننا وبين الدولة . . بحيث أصبحت فجوة الثقة أزمة ثقة . إن تشويه السمعة أصبح هو وسيلة الجميع ضد هذا الجيل . وكأنما أصبح سوء السمعة عزاء وتعويضاً عن جوهر القضية نفسها . لقد قالوا عن جيلنا إنه جيل من المتمردين بغير سبب . . والمعارضين بغير دافع . . والمشاغبين بغير قضية .

بغير قضية ؟

إذا لم يكن الدفاع عن بلدنا ، وإدخال القرن العشرين إلى حياتنا ، هو القضية . . إذن . . فماذا تكون القضية ؟

إن القضية كانت بالنسبة لنا تحمل أبعاداً كثيرة ، بعد أنور السادات وبعد سقوط مراكز القوى وانتهاء النظرة البوليسية إلى جيل بأكمله .

القضية أصبحت هى : كيف نسترد قوتنا . . والعدو يحتل أرضنا على بعد مائة

كيلو متر من عاصمتنا ؟

القضية هى : كيف ننقد مصر ، بغير أن نؤذيها ؟ . . كيف ندافع عن مصر ، بغير أن ندعم فيها الخيلاء والغطرسة ؟ . . كيف نغير مصر ، بغير أن ندمرها ؟ . . كيف نروى قيمها الطيبة ، بغير أن ننمى فيها أعشابها الطفيلية ؟ . . كيف نعشق ترابنا ، بغير أن تدوس علينا الأقدام ؟ . . كيف نعبر لأنور السادات عن ثقتنا فيه ، بغير أن يختلس سماسرة الأمن والبوليس جزءاً منها لحسابهم ؟ . . كيف نقف معه صفاً واحداً ، بغير أن يعنى هذا أننا نقف معه عقلا واحداً ؟ . . كيف ننقل إليه حبنا ، بغير أن نساهم فى موجة جديدة من عبادة الفرد ؟ . . كيف نخبره بأننا أبناؤه ، بغير أن نجعله حاكماً أبوياً ؟ . . كيف نثق ، بغير أن تكون ثقتنا على بياض ؟ . . كيف نؤمن ، بغير أن يكون إيماننا غيابياً ؟ . .

إن علينا أن نتحد جميعاً فى السعى لانتصار قادم . . بالرغم من أننا مشحونون بالمرارة من هزيمة تحققت .

تلك كانت قضية جيلنا . كانت كل هذا . . وأكثر .

كانت قضيتنا هى إصرارنا على أن نكون دولة عصرية . إصرارنا على أن يكون مجتمعنا . . ليس عادلا ومتنبهاً فقط ، لكن مفتوحاً أيضاً . وحينما كنا نقول ذلك ، كان حكماء هذه الأمة – وهم مازالوا مستمرين فى التحدث باسمها – يحتجون فى البداية بأن صوت المعركة أهم من أى صوت آخر . . إن هذه الحقيقة ، التى هى صحيحة فى جوهرها ، كانت تتحول فى النهاية إلى وسيلة جديدة لإنكار أو إخفاء تفسخات وعورات مجتمعنا خلف شعارات أخلاقية ووطنية . إن سقوط تلك الشعارات لم يكن يمنعهم من الدهشة بسبب غضب جيلنا وتمرده . . الذى هو بالضرورة نوع من النقد لأوضاع كثيرة . . هم أنفسهم جزء منها .

إنهم لم يدركوا أن ضغط الهزيمة على أعصابنا ، واستمرار الاحتلال لأرضنا ، كان يملأ عقلنا بمشاعر خطرة : مشاعر الفخر المهزوم والآمال الخائبة ، والقيم التى هزمتها النرجسية القيادية .

لقد حمل كل منا هذا التوتر العصبى فى داخله إلى جامعته ، ووظيفته ،

وجاره فى الشقة التالية ، وزميله فى الأوتوبيس ، وصديقه فى النادى ، وشريكه فى تراب هذه الأرض . ومع كل يوم جديد يمر بغير تحرك ضد العدو المحتل لأرضنا . . كان البخار يتجمع . . والتوتر يتراكم . . والقنبلة الزمنية توشك أن تحول المجتمع كله إلى شظايا . إن القيادات كلها كانت تبشر بيوم قريب وبثأر لابد منه ، ولكن جيلنا كله كان يحتاج إلى دليل . إن نفوسنا قبل الطلقة الأولى فى المعركة — لن تستطيع أن تصدق أو تستريح أو تهدأ .

ثم : انطلقت الشرارة .

لقد بدأت الحرب فى تلك اللحظة التاريخية بعد ظهر يوم ٦ أكتوبر .

هنا فقط التأمت الجراح ، وتوحدت الصفوف . هنا فقط أخلت المرارة مكانها للثأر . لقد تحولت الأمة كلها فى لحظة واحدة إلى جندى واحد . . وعقل واحد . . وصف واحد .

إن أحد مشاهد تلك اللحظات لن يغيب عن ذهنى مطلقاً . فبمجرد إذاعة البيان الأول نسى الناس كل شىء فجأة ، كل شىء مرير ومؤلم اختفى وذاب فجأة فى مشهد واحد : مشهد الناس وهم يتكلمون بعضهم إلى بعض ، ليست أحاديث طارئة وعرضية . . ولكن أحاديث طويلة حارة بين غرباء تماماً . إنهم غرباء جمعهم البيان الأول على نواصى الشوارع وفى المقاهى والميادين . إن البيان الأول — بقدر اقتضابه وقلة كلماته — أشعل انفجاراً من الكلمات والأحاديث والمناقشات . إنها مناقشات تجرى كنوع من الاستشفاء العام . لقد انطلقت الشرارة . وفى انطلاقها أعادت تذكير الناس بحقيقة أن علاقاتهم بعضهم ببعض ظلّت طوال ستّ سنوات فظّة جدًّا وخشنة للغاية ، ثم غير أخويه . إن الأطفال عادوا يتحدثون بحب إلى آبائهم ، والموظفين يحبون رؤساءهم ، والمواطنين يثقون تماماً فى قائدهم . فى هذه المرة لن يحاسبه أحد على النتيجة . . ولكن يكفيه فقط أن يقوم بواجبه كمصرى .

وعلى رمال سيناء نفسها . . كان كل جندى يقوم بأكثر من واجبه . . إن شحنة الانتظار والألم تترجم نفسها الآن إلى رصاص ينطلق ودماء تسيل . إن

الجيل المتمرد ، الجيل سيئ السمعة ، يعوض الآن بعقله ما تقصر فيه التكنولوجيا . . ويسدّ بصدره فوهات المدافع فى خط بارليف . .ويفتدى بروحه كل حبة رمل أمامه . إنه فى هذه المرة يدفع دماءه وروحه ثمناً لمعركة حقيقية . ثمن له مقابل . يكفى أن يكون المقابل كرامة وعزة ورأساً يرتفع إلى السماء وقدماً تتقدم إلى الأمام واحتراماً ضائعًا يعود إلى النفس .

كان هذا هو أعظم إنجاز حققته حرب أكتوبر : احترام النفس .

فى هذه الحدود يصح أن أقول إن حرب أكتوبر أعادت ضبط عقاربنا كلها على ساعة واحدة . لقد استيقظنا من جديد على كمية لا نهائية من الحب يحتفظ بها كل منا لبلده فى أعماقه . . إن الذين قالوا نعم لكل شيء ، والذين قالوا لا لأى شيء . . أصبحوا فجأة يقولون كلمة واحدة : إلى الأمام .

تلك هي الروح التى حققتها معركة أكتوبر .

ثم : انتهت المعركة . . ولكن الحرب لم تنته .

إن الرصاص عندما توقف لم يكن هذا يعنى مطلقًا أن الحرب قد انتهت . . أو أن كل شيء أصبح على ما يرام فجأة . لا . بالعكس . فعلى المستوى العسكرى : مازالت المعركة مستمرة ، وما زال الرصاص محتاجًا إلى الانطلاق من جديد .

وعلى المستوى الحضارى : ما زالت القضية الرئيسية قائمة .

إن القضية فى هذه المرة أصبحت بكل معنى من المعانى : تجديد شباب مصر .

ومثلما اكتشف كل منا لنفسه دوراً فى المعركة العسكرية ، فإن على كل منا أن يكتشف لنفسه أيضًا دوراً آخر فى المعركة الحضارية . إن السلطة تستطيع أن تتقدم إلى جيل الشباب بيد ممدودة وعقل مفتوح وقلب صاف ودعوة جادة للمشاركة . إننا ربما لا نستطيع أن نعطى هذه الأمة مزيداً من الشعارات أو الفلسفات أو الأقوال المأثورة . ربما لا نستطيع أن نعطيها وعوداً براقة تمضغها ألسنتنا وتدوسها أقدامنا . بالتأكيد ليس هذا دورنا .

ولكننا بالتأكيد أيضاً نستطيع أن نعطى هذه الأمة مزيداً من الصدق والصراحة . . والثقة فى المستقبل . . والأمل فى القرن الحادى والعشرين . إننا من الآن نفعل

هذا فعلا ، ولكننا نستطيع أيضاً أن نفعل أكثر .

إن المشكلة هى أنك مالم تحتل مركزًا وتملك سلطة . . فإن ما تستطيعه يمكن أن يكون قليلا جداً .

ولكن ، حتى هذا القليل . . يحتاج إليه بلدنا الآن ، فى هذه اللحظة ، بشكل حاد جدًا . إن كلًّا منا يستطيع مثلا أن يعيش نوع الحياة الذى يعجبه . ولكن مذاق هذه الحياة يمكن أيضاً أن يبرهن ، أويحاول أن يبرهن على أنه ما زال من الممكن أن نختلف بغير عداء ، ونناقش بغير مرارة ، ونتجادل بغير ألم . مازال من الممكن أن نعمق فى بلدنا ، وحكومتنا ، ومؤسساتنا ، القدرة على التحمل . تحمل الاختلاف والنقد والتجربة والحوار الحىّ بين الرأى والرأى الآخر .

بالطبع سوف يظل الرأى الآخر مجرداً من الحماية مالم تسانده مؤسسات دستورية قائمة ومعترف بها ، وتمارس نشاطها فى الضوء والعلانية . إن هذا يجرنا إلى مناقشة قضية الديمقراطية وقضايا أخرى كثيرة ليس هذا مجالها . إن ما يجعلنى متفائلا ، من الآن ومقدماً ، هو أن أنور السادات نفسه مؤمن بهذه القضايا . . مؤمن بأن الخبز ليس بديلا عن الحرية . . والحرية الفردية ليست منفصلة عن المؤسسات التى تحميها . . والقانون ليس مختلفاً عن العدالة . . والشعارات ليست تعويضاً عن التطبيق . . والحكماء ليسوا بديلا عن الشباب . . والولاء ليس بديلا عن الكفاية . . والنوايا الطيبة ليست بديلة عن الأعمال الطيبة . باختصار . باختصار . . المواطن الحر . . هو الشرط الأول لبناء الدولة العصرية .

وفى هذه النقطة فإن كل ما يفعله أنور السادات هو أنه يسدد الشيكات التى حررتها الثورة على نفسها ، وتأجل تسديدها فترة طويلة جداً – ٢٢ سنة !